

تأويل المعنى بالمجاورة: قراءة شعرية النظم في قصيدة "الخال" في مدح الرسول الكريم.

بسام قطوس¹

الملخص:

هذه الدراسة تتناول قصيدة الشاعر اللبناني حسن أحمد العقيلي (1800- 1888) الموسومة بـ "الخال"، والتي نظمها في مدح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، كشاهد من الشواهد على عبقرية المعجم العربي وغنى دلالاته، وعلى عبقرية موازية أخرى تتجلى في قدرة النظم على توليد ما لا يتناهى من المعاني والدلالات. فهي قصيدة تجري على نسق فريد في النظم، حيث جرت القصيدة على طريقة الجناس التام بلفظ واحد وبمعان متعددة. ولقد ألفنا نحن قراء البلاغة العربية ودارسيها، أن يجنس الشاعر بين كلمتين وقد يمتد إلى ثلاث أو أربع أو خمس كلمات، ولكننا لم نألف أن يأتي التجنيس التام في خمسة وثلاثين كلمة، وهي في الحقيقة كلمة واحدة أبدع الشاعر في الاستفادة من معانيها المعجمية وامتد في خلق دلالات جديدة لها.

وهي محاولة تتغيا أن تكون جادة، في اختبار فرضية تتحقق من خلال سؤال محوري، وهو: كيف استطاع الشاعر أن يوفق في قصيدته الموسومة بـ "الخال" بين التشكيل الصوتي (وسائل البديع)، والتشكيل الدلالي (وسائل البيان)، من غير أن يقع في محذور الإسراف الذي حذر منه بعض منظري البديع في البلاغة العربية؟

الكلمات المفتاحية: التأويل، المجاورة، قراءة الشعرية، النظم، الجناس، دلالي.

Abstract:

This paper deals with the interpretation of a poem by the Lebanese poet Hassan Ahmed al-Aqili (1800-1888) titled "Alkhal" which he wrote in praise of Prophet Mohammad (peace and prayer be upon him).

This Poem is unique in its rhyme – scheme which utilizes homonymy, reiterating the Arabic Word "Alkhal" thirty five times throughout the poem.

The paper examines the following pivotal question: How did the poet manage to combine between homography and semantics without showing any sign of redundancy?

Keywords: Interpretation, Contiguity, A poetic reading, Versification, Homography, Semantic

تمهيد:

إذا كان من الصعب فهم التركيب اللغوي بعيداً عن سياقه العام، فإنه من

¹ أستاذ تعليم عالي، كلية الآداب، جامعة الشرق الأوسط.

الأصعب تأويله بمعزل عن سياقاته التواصلية ببعديها: اللغوي الذي يحويه النص، وما فوق اللغوي الذي يعتمد على ظروف خارج السياق. أية ذلك أن السياق ببعديه المذكورين أنفاً يفرض أبجدياته على المؤول، ويسمح بقيام عملية التأويل، بحثاً عما لم تقله الألفاظ والكلمات بحد ذاتها إلى ما يمكن أن ينبئ عنه التركيب. وهذا يعني ببساطة أن اللفظة الواحدة أو الكلمة الواحدة قد تقول عشرات المعاني من خلال سياقاتها التواصلية. من هنا تبدو الكلمة الواحدة في النص الأدبي بعمامة والشعري منه بخاصة وكأن لها ما لا يحصى من الامتدادات والدلالات، لتغدو القصيدة وكأنها نص مفرع لا حدود لامتداداته.

ولعل قصيدة الشاعر اللبناني حسن أحمد العقيلي (1800-1888)¹، الموسومة بعنوان "الخال"، والتي نظمها في مدح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، واحدة من الشواهد على عبقرية المعجم العربي وغنى دلالاته، وعلى عبقرية موازية أخرى تتجلى في قدرة الناظم على توليد ما لا يتناهى من المعاني والدلالات. فهي قصيدة تجري على نسق فريد في النظم، حيث كرر الشاعر كلمة واحدة هي "الخال" معرفة باللام ومنكرة، خمساً وثلاثين مرة: مرة واحدة في تفعيلية العروض وأربعاً وثلاثين مرة في تفعيلية الضرب، مشتقاً منها فعلاً واحداً هو "خالوا" في بيت واحد، دون أن يكرّر معنى واحداً مطلقاً. وقد جرت القصيدة على طريقة الجنس التام المتمائل في أربعة أمور هي: نوع الحروف، وعددها، وترتيبها، مع الاختلاف في المعنى². ولقد ألفنا، نحن قراء البلاغة العربية ودارسيها، أن يجنس الشاعر بين كلمتين وقد يمتد إلى ثلاث أو أربع أو خمس كلمات، ولكننا لم نألف أن يأتي التجنيس التام في خمس وثلاثين كلمة، وهي في الحقيقة كلمة واحدة أبدع الشاعر في الاستفادة من معانيها المعجمية، وامتد في خلق دلالات جديدة لها.

هذه الدراسة هي محاولة تتغيا أن تكون جادة، في اختبار فرضية تتحقق من خلال سؤال محوري، وهو: كيف استطاع الشاعر أن يوفق في قصيدته الموسومة بـ"الخال" بين التشكيل الصوتي (وسائل البديع)، والتشكيل الدلالي (وسائل البيان)، من غير أن يقع في محذور الإسراف الذي حذر منه منظرو البديع في البلاغة العربية القديمة، وعلى رأسهم ابن المعتز³؟ وربما تحسن الإشارة في هذا السياق إلى أن نظرة بعض المشتغلين بالبديع بدءاً بابن المعتز (ت 296هـ)، ومروراً بابن أبي الأصبع المصري (ت 654هـ)، وانتهاء بالخطيب القزويني (ت 739هـ) كانوا يعدون أركان البلاغة في ثلاثة: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع، وهذا الأخير كانوا يعدونه تحسناً ثانوياً، حتى إن أمين الخولي الذي حاول، مشكوراً أن يجترح مناهج تجديد درس البلاغي، لم يبتعد عن تلك النظرة للبديع بعده تحسناً ثانوياً؛ نظراً لاستقرار مثل هذه الأحكام أو شبه استقرارها⁴.

ولعل الهدف المبدئي لسؤال هذه الفرضية كامن في عنوانها الموسومة بـ"تأويل المعنى بالمجاورة: قراءة شعرية النظم في قصيدة "الخال"، سواء العنوان الرئيس الذي يشير إلى التأويل من خلال نظام المجاورة، حيث تنهض الكلمة الواحدة بسلسلة لا تكاد تنتهي من الدلالات التي يفرضها السياق، أو من خلال العنوان الفرعي: "قراءة شعرية النظم في قصيدة "الخال"، الذي يشير إلى أصالة النظرية

البلاغية والنقدية العربية ممثلة بأبرز أعلامها عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، ويحدد منهجية الدراسة التي تتحو منحى التأصيل في اعتمادها نظرية النظم أصلاً للقراءة. مع الأخذ بعين الاعتبار أن كليهما أي التأويل والنظم يتحقق من خلال المصالحة التي حققها الناظم، ويسعى إلى تحقيقها القارئ الحالي بين حقلي البديع والبيان. من خلال ربط تحقق الاستعارة في القصيدة بالمستوى الإبداعي والذي يتحقق على المستوى التأليفي. فالتجاور بين الكلمات تقوم بتنظيمه العلاقات التأليفية، وهذه هي التي تحدد مصير/ دلالة التجنيس ومعناه وتوزيعها على مساحة القصيدة/النص. إذ يقوم الإبدال في العلاقات التركيبية بتغيير المعنى ويؤدي إلى إبداع الدلالة الجديدة. وهذا يمثل انزياحاً إبداعياً عما هو مألوف في علاقات اللغة. 5

دور الاختيار في نظم القصيدة:

والدراسة إذ تتخذ من نظرية النظم المشهورة للبلاغي والناقد العربي عبد القاهر الجرجاني ميدانها الأول للتأصيل، فإنها لن تغض النظر عما أحدثته الدراسات اللغوية ومناهج النقد الحديث كالبنوية ونظريات القراءة من ثورة منهجية في الدراسات اللغوية، وما نتج عنها من مفاهيم كثيرة وفي مقدمتها تقريقر دوسوسير الشهير بين اللغة والكلام. فإذا كانت اللغة نظاماً أو مجموعة من القواعد والمعايير التواصلية، فإن الكلام لدى دوسوسير (النظم بتعبير الجرجاني) يشتمل على التجليات الفعلية للنظام متحققاً من خلال الكتابة، أو هو محاولة كل متكلم (شاعراً كان أم روائياً، أم خطيباً...) أن ينسجم داخل مؤسسة اللغة الكبيرة بفعل اختيار فردي مقصود. 6 وهذا يؤكد على أن عناصر القصيدة أو أي عمل فني تخضع إلى قوانين تركيبية تتعدى دور اللفظة أو الكلمة المفردة قبل أن تدخل في علاقات مع أخواتها. من هنا تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن طبيعة اللغة الشعرية في كونها ذات طبيعة نظمية (عند الجرجاني) أو خطية (عند دوسوسير)، وأسماها تفاعلية في الإبداع الشعري، لأنها لا تكتسب معانيها وقيمها الفنية إلا من خلال مجمل العلاقات مع الكلمات المجاورة لها، أو حتى التي تشكل أضداداً لها. من هنا تبرز الحاجة إلى الجهد الفكري، وعدم الركون إلى البحث عن المعنى المعجمي للوصول إلى الدلالة المتغية، بل لا بد من درس النقدي التأويلي، من خلال الذهاب إلى السياق؛ فالسياق اللغوي هو من يسعف المؤول، باعتبار اللغة، على وفق ابن جني "أكثرها مجاز". 7

إذن لا مندوحة، بعد إذ تبين أن اللغة لم تعد أداة لتسمية الأشياء، وإنما هي نظام اجتماعي لا شعوري يمتح منه مستعملوه - من النظر إلى القصيدة المبدعة في ضوء معاييرها التواصلية، بحثاً عن ذلك البعد التداولي فيها، ومعرفة الفارق النوعي بين اللغة بوصفها منظومة والكلام بوصفه اختياراً فردياً مقصوداً.

وهذا ما رأيناه يتحقق في القصيدة المدروسة، إذ بنى الشاعر قصيدته أو صرحه الكلامي (نسبة للكلام تمييزاً له عن اللغة) متكناً على، وموازناً بين وسيلتي البديع والبيان، جاعلاً كلاً منهما يؤدي دوره أو وظيفته الإبداعية على أكمل وجه دون أن يضعف مستوى النظم، ومحققاً ما أسمته الدراسة "شعرية النظم". وإذا كانت الوسائل البديعية تتحو نحو البهرجة بغية استقطاب حواس المتلقي لإغرائه بتأثيرها التزييني، فإن الوسائل البيانية تعمل على استبدال الدلالات ببعضها وشحنها بمدلولات

جديدة مغايرة لمعانيها الأول، فكأنها تعمل على لجم إسراف الوسائل البيعية ومبالغاتها لتصب في مصلحة النص (القصييدة في قراءتنا)، ومن ثم في مصلحة القراءة المنتجة للقصييدة، لأن على القارئ أن يدخل في حوار نقدي مفتوح مع النص ويسهم في صناعة المعنى وتأويله. 8

شعرية النظم:

ولعل ما أسميته "شعرية النظم" يعيدنا، بدءاً، إلى نظرية الجرجاني الشهيرة ومقولته المعروفة: "اعلم أن ليس "النظم" إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو" وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهَجَتْ فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسِمَتْ لك، فلا تخل بشيء منها إلخ". 9

فالجرجاني هنا يرسّخ دور القيمة النحوية في أداء المعنى، وحمل اللغة على الإفصاح عن دلالتها بوجه دقيق منظم، يجعل من البلاغة صناعة الفكر العميق، وهذا ما جعله يركز على بناء الفكر بالدرجة الأولى؛ أية ذلك أن الفن البلاغي يمكن أن يتم فيه التشكيل والتعبير بنفس الأدوات أي من مادة لغوية واحدة، ولكن ليس بنفس المستوى، فيكون أحدهما بليغاً معجزاً ويكون الآخر دونه مرتبة. 10

ثم يؤكد الجرجاني على أهمية معاني النحو للناظم فيقول: "هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً، وخطؤه إن كان خطأ، إلى "النظم"، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه = أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساد، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وتلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل، إلى معاني النحو وأحكامه...". 11. واضح أن عبد القاهر الجرجاني كان الأكثر نفاذاً في رؤيته، فقد وازن بين اللفظ والمعنى مؤكداً على أن ما ينقد الجناس من الإسراف في الصنعة ويزيده فضيلة هو التصالح بينه وبين المعنى، وقدرته على التأسيس لمعان تقع من العقل موقعاً حميداً، حيث قال:

"أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان وقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً، أتراك استضعفت تجنيس أبي تمام في قوله المعروف (من الكامل):

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الظنون أمذهب أم مذهب

فقد تبين لك أن ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، ولما وجد فيه فيه معيب مستهجن، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به، وذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه". 12

من التفسير إلى التأويل:

أما التأويل فقد غدا مصطلحاً مستقراً في الدراسات النقدية العربية قديمة وحديثة، ولكن ما نتبناه في هذا البحث هو التأويل بوصفه جدل التفسير والفهم أو الاستيعاب الذي يعمل وفق جدل القراءة والكتابة، فما دام فعل القراءة يشكل نظيراً

لفعل الكتابة، فإن جدل الواقعة والمعنى الذي يشكل جوهر بنية الخطاب، يولد جدلاً ملازماً في القراءة بين الفهم والاستيعاب.¹

وأهمية التأويل في اللغة العربية نابعة من خصائص تلك اللغة القائمة على المجاز والاستعارة إلخ، وحاجة النص للتأويل حاجة حياة أو موت، وحين يعجز التفسير عن الدلالة للمعنى المراد فلا بد حينها من اللجوء إلى التأويل للوصول إلى الدلالة المجازية، وهذا هو بالضبط مفهوم التأويل عند ابن رشد.²

ولما كانت عناصر القصيدة المدروسة تخضع إلى قوانين تركيبية تتعدى دور اللفظة المفردة إلى قدرتها التعبيرية أو النظمية (المجازية) إن شئت، فقد رأينا أن ندرسها بوصفها بنية تتأسس على رؤية تحيل إلى السياق قبل أن تحيل إلى التجنيس الذي بنيت عليه الكلمة الأخيرة في القصيدة، مثلما تحيل إلى أفق من العلاقة بين الشاعر ومعجمه الخاص الذي تميّز بالفردة.

من معاني الخال ودلالاتها المعجمية:

وإظهاراً لتلك الفردة، فقد رأينا أن نتعقب كلمة "الخال" في المعجمات العربية، ونستقصي كل معانيها قبل أن نعود لقراءة القصيدة قراءة تخضعها لقوانينها التركيبية أو النظمية ليمرر دور الكلمات المجاورة في تأويلها.

إن استعراض الجذر اللغوي للكلمة المختارة من الشاعر لبناء قصيدته أو معمار قصيدته يدل على نجاحه في اختيار ذلك الجذر اللغوي لكلمة "الخال"، لأنها تأتي في المعجم من جذرين غنيين في معانيهما ودلالاتهما، وهما: "خول" و"خيل"، مما يوسع من إمكانيات البدائل، ويوفر عدداً كبيراً من المعاني التي أبدع الشاعر في توزيع دلالاتها توزيعاً سيميائياً ودلالياً مقنعاً. فلو اقتصرنا على لسان العرب وهو أوفى المعاجم في استعراض الجذر اللغوي للمادة المقصودة، لوجدنا الآتي:

من مادة خول، نجد في لسان العرب الآتي:

الخال : أخو الأم... يقال خالٌ بينَ الخُوَلة. وخال المال يخوله إذا ساسه وأحسن القيام عليه، وإنه لخال مال أي حسن القيام عليه.

والخال : لواء الجيش.

والخال : نوع من الثُروء.

والخال : ما توسّمت فيه من الخير. وأخال فيه خالاً وتخول: تفرّس.³

ومن مادة خيل، نفع في اللسان على الآتي من المعاني:

خال الشيء يخال إلخ ظنّه

الخال: داءٌ كالظَّلَع والغَمَز يكون بالدابة.

و: الغيم

و: البرق

و: الكِبَر، يقال خال الرجل يخول خوْلاً واختال إذا تكبّر.

2- يتمثل عن بول ريكور، نظرية التأويل: الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2003، 1، صص 117-121).

1- انظر: العراقي، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد النماء العربي، 1986، ص 207.

1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ج 1، مادة خول، صص 224-225.³

ورجل خال : ذو خيلاء مُعَجَّبُ بنفسه.
 و: السحاب، والسحابة لا مطر فيها.
 ويقال: رجل خالٌ: سَمُحٌ. ورجلٌ خالٌ أي مختال. وابن سيدة: معجب بنفسه.
 ورجلٌ خالٌ مال: حسن القيام عليه.
 و: بُزْدَ يمنيٌّ أحمر فيه خطوط سود.و: ضرب من بُرود اليمن الموشية.
 و: الموضع لا أنيس فيه.
 و: اللواء يعقد للأمير. وأبو منصور: والخال اللواء الذي يعقد لولاية والٍ.
 و: صاحب الشيء.
 و: الملازم للشيء.
 و: شامة أو نُكْتَةٌ سوداء في البدن. وفي صفة النبوة: عليه خيلانٌ؛ هو جمع خال وهي الشامة في الجسد.
 و: الرجل الضعيف القلب. والمنخوب الضعيف.
 و: الأكمة الصغيرة.
 و: الجبل الضخم.
 و: البعير الضخم. والجمع خيلان.
 وخيل إليه أنه كذا: من التخييل والوهم.¹
 بعد هذا الكشف عن معاني "الخال" بجذريها: خول وخيل، نعود إلى ترتيب تلك الكلمات أو توزيعها على ما يناسبها من معان ودلالات، من خلال ما جاورها من كلمات تكشف عن الدلالة الحقيقية لكل كلمة وردت في ضرب كل بيت، آخذين بعين الاعتبار أنه لا يجوز أن يتكرر معنى واحد في بيتين أو أكثر. وأقترح إجرائياً أن أستبق التأويل بوضع دلالة كل كلمة بجانبها لتحقيق ما يمكن أن أسميه "البناء البصري، أو التشكيل البصري" للقارئ ليسهل تواصله مع القراءة والبحث، حتى لا يضطر للعودة إلى كل بيت بعد كشف دلالاته. وهي طريقة عكسية اجتهدت فيها قصد التسهيل على القارئ، بوضع صورة بصرية أمام عينيه ، قبل أن يتجه لقراءة هذا البحث.

نص القصيدة:

قصيدة الخال

تركتُ هوى حلو اللَّمى عمه الخالُ	بهاء شقيق البدر يعشقه الخالُ	(جاذب العشق)
له وجنة حمراء والطرفُ أسودُ	يجرّد منه أبيضُ فاتكُ خال	(قاطع)
ولم أصبُ للطبي الغرير ومن بدا	رشيقاً قواماً أهيفاً جسمه خال	(ناعم)
ولا قطُ دمعي سال شوقاً لجوذر	يلوح إذا ما افترّ عن ثغره الخال	(البرق)
وما شاقني ذكرُ العذيب وبارق	ولا عذباتُ البان والرندُ والخال	(نبت بنجد)

1- لسان العرب، ج 11، مادة خيل.

ولكن فؤادي هام حباً بمن غدا	مليكاً له بين الورى عُقْدَ الخال	(اللواء)
نبيّ جليلٌ كاملُ الحُسْنِ وافر الـ	مزايّا مديدٌ ماجدٌ سيّدُ خال	(جواد سُمَح)
حميدُ الثنا باهي السنا شامخُ البنا	همامٌ له ملكُ البريّة والخال	(الخلافة)
نبيّ عريقُ الأصلِ أشرف مبدع	كريم السجايا أعظمُ فاجرُ خال	(حسن الحلة)
فريدٌ جمالاً جامع الفضل أزهرُ	إمام لكل الناس ربُّ حجا خال	(صادق المخيّلة)
رسولٌ براه الله أكرمَ مرسلٍ	بشيراً نذيراً لاح منه لنا خال	(سيمياؤه الخير)
وألْبسه المولى من الحسن والضيا	مفوّفٌ بُردٍ لا يماثلُه خال	(بُردٌ من برود اليمن)
رسول حباه الله علماً وحكمة	على طاعة الرحمن مجتهد خال	(قائم على الشيء)
عليهم بأسرار العباد وناظرُ	من البعد لم يخطئ له أبداً خال	(فراصة)
أتى هادياً يدعو الورى متواضعاً	لبارئهِ بالألطف ليس به خال	(كبير)
يفيض علوم الدين والحق مثلما	يفيض ويهيم صيّب المزن والخال	(السحاب الممطر)
هو المصطفى المبعوثُ للخلق رحمةً	شفيع البرايا من لكل الورى خال	(صاحب ومجير)
هو الشمس في أوج العلا لا يشوبه	كسوفٌ ولكن نورُهُ دائمٌ خال	(مستمر)
هو البدر لا يعرفه نقصٌ وإنما	له المجد حلّي والكمال له خال	(ثوب)
به جاء نصر الله والفتح والهدى	وقد رفع الإيمان وانخفض الخال	(التوهم)
وضاءت به الدنيا وأصلح حالها	وفيهما تبدّى الأنس وانمحى الخال	(الموضع الذي لا أنيس فيه)
وعاش برؤيا وجهه كلُّ هالك	وصحّ بلمس منه ذو العلة الخال	(ضعيف الجسم)
فقل فيه مهما شئت مدحاً ولا تمل	لما زوّروا فيه العداة وما خالوا	(ظنوا وزعموا)
فما هو إلا كامل الحمد والثنا	من العيب عار سالّم طاهرٌ خال	(بريء من التهمة)
أيا طودَ جِلْمٍ ثم حزمٍ وسودٍ	رفيع البنا سامي النّرا دونه الخال	(الجبيل الأشم)
أيا سيدي فاغفر لمن هو مغرّم	بحبك جدّاً هائم القلب لا خال	(فارغ من الحب)
بودّك يا ذا النور أضحي معلقاً	فلا يبتغي السلوان لو ضمّه الخال	(الكفن)

أتاك رسول الله يسعى من الخطا	ووزرٍ ثَقِيلٍ سَعَى مرءٍ به خال	(ظلع وعرج)
مطَيَّته التَّقْصِيرِ والذَّلَّ والرَّجَا	وحسن ظنونٍ فيك لا التَّهْدِ والخال	(الجمال الضخم)
به جمحت خيل الذَّنوب ولم يكن	له غير عَفْوٍ منك يا مرتجى خال	(لجام)
فأنت له المطلوب والقصد والمنى	مدى الدَّهر لا وادي العقيق ولا الخال	(مكان في بلاد أسد)
وعن حصر فضلٍ فيك جاء مَقْصِراً	وهيهات لا يحويه شعرٌ به خال	(هذا اللفظ)
عليك صلاةُ الله ما هَبَّت الصَّبَا	وما هطلت سَحْبٌ وما أخصب الخال	(الربيع)
وما أشرقت شمسٌ وما أظلم النُّجى	وما قد بدا نجمٌ وما أورق الخال	(نور معروف)
وما قال صبٌّ في ولاك مولعٌ	تركت هوى حلو اللَّمى عمه الخال	(شامة في البدن)

ثنائية الانغلاق والانفتاح:

إن إنتاج الدلالة اللغوية في الأدب بعامة، وفي قصيدتنا المدروسة بخاصة، يتحقق بكيفيات لغوية متعددة، والأصل في غايتها النهائية أن تعمل على انسجام القصيدة من خلال عملية النظم التي أشرنا إليها آنفاً، محققة ما يمكن أن يسمى في مصطلحات النقد والتأويل "المستوى التداولي للغة"¹. والقصيدة المدروسة هنا تنبثق بحسن إبداعها أن اللغة لم تعد أداة لتسمية الأشياء وحسب، وإنما هي نظام شكلي لاشعوري يعتمد على الفروق، وليس على القيم الإيجابية الثابتة، بل أصبحت اللغة نفسها هي المقياس الذي تقيس به ذاتها، مما يحتم النظر إليها في ضوء معاييرها الخاصة، التي تمنحها فرادتها. ولعل وجه الفرادة في القصيدة يكمن في وقوعها بين ثنائيتي الانغلاق والانفتاح. أما الانغلاق فهو كون الشاعر بنى قصيدته بدءاً على كلمة واحدة هي كلمة الخال ملزماً نفسه أكثر مما يلزم، فكأنه ضيق الباب على نفسه في مساحات الاختيار، بيد أنه عوض هذا الانغلاق بفتح قصيدته على مدارات من الدلالة فتحت لدى القارئ قدرة على التأويل وإنتاج المعنى، وبالتالي إنتاج الدلالة، دون أن تضيق مساحات التخيل، وهذا بعض مما تهتم به نظريات القراءة المعاصرة. آية ذلك أن هذه القصيدة تفتح آفاق المشاركة والإسهام في الفعل الإبداعي الذي لم يعد من حصة المنشئ/ المبدع نفسه بقدر ما أصبح شركة بين اثنين..، فقد غدا القارئ الثقف صناعاً آخر للنص يسهم في تأويله باستعارة أو استعادة قدرة المبدع على إتيان فعل الخلق والتكوين بله الدخول في التجربة اللغوية الماثلة².

1- (خطابي، محمد، لسانيات النص، ص295).

1- ينظر: صمود، حمادي، قراءة نص شعري، صناعة المعنى وتأويل النص، ص357).

مصادر البحث ومراجعته:

1- ابن أبي الإصبع المصري، تحرير التحرير، تحق، محمد شرف، القاهرة، 1382هـ.

لقد تم التأسيس للمعنى في القصيدة عبر ثلاثة مستويات متداخلة أو متكاملة في إحداث أثر النظم المتوخى، وهذه المستويات صنفنا لأغراض البحث العلمي على النحو الآتي:

أولاً: التأسيس لدلالة الكلمة الأخيرة (الكلمة الهدف) بدءاً من الكلمة الأولى في صدر البيت، وأمثلة ذلك المنتقاة للتمثيل فقط قوله:

عليهم بأسرار العباد وناظر من البعد لم يخطئ له أبداً خال
فقد أسس لدلالة كلمة "الخال" منذ الكلمة الأولى، فالممدوح، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، عليهم بأسرار العباد، وناظر أي : راء أو صاحب رؤية ثاقبة، ومن ثم فهو لا يخطئ له أبداً خال، أي فراسة، وهو المعنى المقصود هنا. فقد توج المعاني المتدرجة بكلمة الخال التي تعني الفراسة، فحق للعلیم والراني والذي لا يخطئ أن يكون صاحب فراسة، والأخير معنى اشتق من كل الصفات السابقة التي بدأ التأسيس لها منذ الكلمة الأولى في البيت.

ومثال ذلك أيضاً قوله :

يفيض علوم الدين والحق مثلما يفيض ويهمي صيب المزن والخال

- 2 - الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، 1991.
- 3- الجرجاني، عبد القاهر ، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، 1992.
- 4- ابن جني ، أبو الفتح عثمان ، الخصائص، دار الكتب المصرية، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية القسم الأدبي، (د.ت).
- 5- خطابي ، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1991
- 6- الخولي، أمين، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة، 1961
- 7- درويش، أحمد، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998.
- 8- ريكور، بول ، نظرية التأويل: الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2003.
- 9- صمود، حمادي، قراءة في نص شعري، صناعة المعنى وتأويل النص، أعمال الندوة التي نظمها قسم اللغة العربية من 24-27 أبريل، 1991، منشورات كلية الآداب بمنوبة، المجلد الثامن، 1992.
- 10- عبد المطلب ، محمد ، البلاغة والأسلوبية، (مقدمات عامة) ، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، 1995.
- 11- العراقي، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد النماء العربي، الطبعة الأولى، 1986.
- 12- الغانمي، سعيد ، أقنعة النص، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1991.
- 13- قطوس، بسام، إستراتيجيات القراءة: التأصيل والإجراء النقدي، إربد، دار الكندي، 1998.
- 14- ابن المعتز، عبد الله، البديع، تحق. عبد الستار أحمد فراج، القاهرة، 1956.
- 15- ابن منظور، لسان العرب ، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- 16- القزويني، الخطيب، متن التلخيص في علم البلاغة، دار إحياء الكتب العربية، (د.ت).
- 17- الولي، محمد، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، 1990.

فدلالة الخال هنا جاءت تتويجاً للمعاني المؤسسة منذ الكلمة الأولى، فوصف الرسول بأنه يفيض العلم والحق (والفيض نور) وتشبيه تلك الصورة بصورة صيب المزن يقود حتماً إلى الدلالة الوحيدة لكلمة الخال في السياق وهي السحاب الممطر، فجاءت الكلمة الأخيرة بمعنى السحاب الممطر وكأنها حجر الغلق في بناء محكم النسج لا يستطيع المؤول الذهاب إلى غيرها.

وكذلك قوله:

وألبسه المولى من الحسن والضيا مفوّف بُرد لا يماثلـه خال
فكلمة ألبسه أسست للدلالة المقصودة حيث من مشمولات اللباس وتوابعه الحقيقية البرود جمع برد، ومن توابعه المعنوية والمجازية الحسن والضيا والتقوى، وقد زاد خيال الشاعر على ذلك بأن جعل اللباس مفوّفاً أي : مزركشاً زيادة في جماليات ذلك اللباس وأضافها إلى "برد"، حتى يشتق منه ما لا يماثله من البرود، أي كلمة الخال المتغية في السياق، وهو برد آخر من برود اليمن، آية ذلك أنه ببرود اليمن يضرب المثل في الحسن والبهاء. وهكذا أتت كلمة الخال هنا بمعنى "بُرد من برود اليمن".

وهكذا يستمر نفس الشاعر البنائي في القصيدة مؤلفاً بين كل لفظة وأختها متجهاً صوب الدلالة المتغية في الكلمة الهدف، فيقول في بيت آخر:

هو المصطفى المبعوث للخلق رحمة شفيع البرايا من لكل الورى خال
فكلمة الخال هنا جاءت بمعنى صاحب والمجير، وحري بمن اصطفاه الله (المصطفى)؛ أي اختاره ليبلغ رسالته إلى خلقه، أن يكون رحمة للعالمين، فهو بالتالي شفيع البرايا كلهم، ومن ثم فلا مندوحة من الوصول إلى الدلالة المقصودة بكلمة الخال وهي صاحب ومجير.

ومثل ذلك يقال في البيت:

هو الشمس في أوج العلا لا يشوبه كسوفٌ ولكن نورُهُ دائمٌ خال
فـ "خال" هنا بمعنى دائم أو ملازم أو مستمر، كيف لا وقد أسس للمعنى منذ وصفه بالشمس، ثم تنبّه إلى أن الشمس يعترّيها الكسوف، في حال كون الكسوف عارضاً طارئاً يحجب أشعة الشمس لبرهة من الزمن، ولكنه استدرك هذا العارض من الكسوف فنفاه عن الممدوح بأن أكد بأن نور الرسول -صلى الله عليه وسلم- دائم لا يعترّيه كسوف ألبتة.

وقوله:

فما هو إلا كامل الحمد والثنا من العيب عار سالمٌ طاهرٌ خال
فكلمة خال معناها هنا (بريء من التهمة) تم التأسيس لها من بداية البيت في وصف الممدوح عليه الصلاة والسلام بالكمال، خال من العيب أي عار منه، طاهر، لتأتي كلمة خال تتويجاً لكل تلك المعاني، أي بريء من التهمة.

ثانياً: التأسيس لدلالة الكلمة الأخيرة (الكلمة الهدف) بدءاً من عجز البيت:
وأمثله كثيرة ومنها قوله:

تركنت هوى حلو اللمى عمّه الخال بهاء شقيق البدر يعشقه الخال
فالخال الأول الواقعة في العروض وقعت بمعنى شامة في البدن، يقال هو
أخيل كثير الشامات وجمعها خيل ولا فعل لها. أما كلمة الخال في الضرب فأسس
لمعناها أو دلالتها منذ عجز البيت منذ "بهاء شقيق البدر" واصفاً شدة جماله ثم أتبعها
بكلمة يعشقه الخال، بمعنى جاحد العشق، فحتى هذا الجاحد ليس له إلا أن يعشق بهاء
شقيق البدر. وصحيح أن التأسيس للدلالة بدأ من أول وصف في عجز البيت إلا أن
الكلمة المجاورة "يعشقه" هي التي قطعت بأن معنى الخال هو جاحد العشق.
وقوله:

له وجنة حمراء والطرف أسود يجرد منه أبيض فاتك خال
فالتأسيس لمعنى "خال" بدأ من الشطر الثاني من كلمة يجرد الأبيض الفاتك
وهو السيف الفاتك القاطع لحدته، وهي صفة ملازمة له حتى يجرد، وهنا تأتي الخال
بمعنى القاطع الذي لا ينبو حده.

هو البدر لا يعرفه نقص وإنما له المجد حلّي والكمال له خال
فعجز البيت بدءاً من له المجد حلّي قاد لمعنى الكلمة الأخيرة وهي بمعنى الثوب أو
اللباس، فهما متناظرتان هكذا: المجد له حلّي أي زينة، والكمال له خال، أي ثوب
يزينه.

ومثل ذلك يقال في البيت اللاحق من قوله:

به جاء نصر الله والفتح والهدى وقد رفع الإيمان وانخفض الخال
فالنصف الأول من العجز قاد لدلالة الكلمة الأخيرة، فارتقاع راية الإيمان
سيتبعه بالضرورة انخفاض راية الكفر، ولما كان الإيمان هو الحقيقة غير المخيلة،
وهو الحق الذي لا حق بعده، فكانت كلمة الخال هنا بمعنى مناقض وهو التوهم، وهذا
هو المعنى المراد ذي الإيحاءات الكثيرة التي على رأسها الكفر، وهو ضد الإيمان.
وسنكتفي بمثال أخير على تأسيس الدلالة في هذا القسم، تاركين للقارئ
الفطن استنباط المعاني والدلالات على وفق ما جسدناها في الرسم (الحيز) البصري.
والمثال هو قول الشاعر:

وضاعت به الدنيا وأصلح حالها وفيها تبدى الأنس وانمحى الخال
فعجز البيت مقسوم إلى جملتين متناظرتين توديان معنيين متخالفين، هكذا:
وفيها تبدى الأنس تخالفها تماماً انمحى الخال
فالهاء من كلمة فيها تعود على الأرض وقد تبدى فيها الأنس، وبذلك انمحى
وزال الموضع الذي لا أنيس فيه. وكما لاحظنا في كل الأمثلة المضروبة للتمثيل فقط،
أن التأسيس لدلالة لفظة الخال كان يتم من خلال عجز البيت، وأحياناً يمتد إلى الكلمة
المجاورة، كما سيتضح في القسم الثالث من الدراسة.

ثالثاً: التأسيس لمعنى الكلمة الهدف من خلال الكلمة المجاورة:

وأمثلة ذلك كثيرة، ولكننا نأخذ منها نماذج متخيرة، وسأعتمد إلى ذكر الأبيات
متلاحقة، ثم أخلص إلى المعنى المقصود أو الدلالة المتوخاة منها، وسأعلم بالخط
الأسود الغامق على الكلمات المجاورة التي كشفت المعنى المقصود، ثم أوضحها
لاحقاً:

يقول الشاعر:

نبيّ جليلٌ كاملُ الحسنِ وافر الـ مزايا مديدٌ ماجدٌ سيّدُ خال
ولم أصب للظبي الغرير ومن بدا رشيقاً قواماً أهيفاً جسمه خال
نبيّ عريق الأصل أشرف مبدع كريم السجايا أعظمُ فاخرُ خال
فريدٌ جمالاً جامع الفضل أزهرُ إمام لكل الناس ربُّ حجا خال
رسول حباه الله علماً وحكمة على طاعة الرحمن مجتهد خال
ثم يتابع وصف الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم:
وألبسه المولى من الحسن والضيـا مفوّف برد لا يماثله خال
وعاش بروياً وجهه كلُّ هالك وصحّ بلمس منه ذو العلة الخال
فقل فيه مهما شئت مدحاً ولا تمل لما زوّروا فيه العداة وما خالوا
إن قراءة فاحصة للكلمات التي جاورت كلمة خال أو الخال حرية بكشف
معناها، ولنلاحظ:

فكلمة "سيد" كشفت معنى خال المجاورة لها وهي بمعنى (الجواد السمج)،
إذ الجود والسماحة لا يصدران إلا عن سيد ماجد.
"جسمه مسبوقة بالوصف رشيق" كشفت عن معنى "الخال"، ودلالاتها
(ناعم).

"فاخر" كشفت أو أوحى بمعنى خال بعدها، وهي بمعنى (حسن الخلّة).
"رب حجا" كشفت، أو أوحى بمعنى خال، ودلالاتها (صادق المخيلة).
"مجتهد" كشفت أو أوحى بمعنى خال، وهي في السياق بمعنى (قائم على الشيء حق
القيام).

وكذلك نقول في بقية الأبيات: "مفوّف البرد" أحضرت معنى خال، وهي
بمعنى (برد من برود اليمن)،
و "ذو العلة" أحضرت معنى الخال التي تليها بمعنى (ضعيف الجسم
والقلب)،
و "زوّروا فيه العداة" كشفت عن معنى خالوا؛ أي (ظنوا، وزعموا زعماً باطلاً).
وهكذا دواليك.

لقد اتضح لنا بعد هذه القراءة أن استخدام التجنيس في القصيدة لم يضعفها
كما شاع في أدبيات علم البديع، الذي أسسه ابن المعتز (247-296هـ)، وحدهه بعدم
الإسراف في استعماله، لأن الإسراف ينحو فيه نحو الصنعة، ويمنع القارئ من النفاذ
إلى داخل القصيدة. وتجلى إبداع الشاعر في قدرته على المصالحة بين البديع والبيان،
محافظة على شعرية النظم، ومؤكداً على عبقرية المعجم العربي وغناه، وكثرة البدائل
المتاحة للتعبير واجترار معان ودلالات جديدة، مما يجعل دور المتلقي إيجابياً وفعالاً
في صنع المعنى. وهذا مطلب مهم من مطالب نظريات القراءة والتلقي، حيث النص
يمنح القارئ متعة الوصول إلى المعنى.

وكان من نتائج البحث:

1. نجح الشاعر في اختيار الجذر اللغوي للكلمة الهدف (الخال)؛ لأنه وفر
لقصيدته عدداً كبيراً من المعاني وبدائلها التي أحسن استثمارها دلاليّاً.